

الجامعة والتنشئة الاجتماعية بين النمطية والتغيير

د/ بواب رضوان. أستاذ محاضر - أ -

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد الصديق بن يحيى جيجل

البريد الإلكتروني: bouab.redouane@yahoo.frملخص البحث:

تعتبر الجامعة في رسالتها الأصلية مشروع للمعرفة والخبرة... فهي منتجة لها وناقلة وموزعة لمحتوياتها، وهي مطورة ومحددة لرصيداتها، وموظفة لثمراتها فيما ينفع الناس، فالجامعة فضاء لإنتاج المعرفة ونشرها وكذا تشكيلها لأنساق مترابطة ومتكاملة مع المحيط الخارجي والمجتمع ككل، فالسلطة الجامعية تمارس سيطرتها بفرض نسق معين تجسد من خلاله إيديولوجية السلطة من خلال أنساق ثقافية وقيم في صورة سلطة رمزية تضفي نوعاً من الشرعية من أجل سيرورتها، حيث تتقاطع هذه الأخيرة في كثير من الأحيان مع قيم المجتمع بصفة عامة، فالجامعة ليست مصدراً لإنتاج الشهادات فحسب، بل هي صورة المجتمع في أسمى وأرقى مظاهره.

فالمؤسسة التربوية الجامعية هي مؤسسة للتنشئة الاجتماعية وهي صورة مصغرة للمجتمع الذي أوجدها، كما أنها عبارة عن نظام رسمي يساهم بشكل فعال في عملية التنشئة الاجتماعية وصقل معارف الأجيال واستدخال ثقافة المجتمع وفق اتجاهات معينة و تمثيلات لقيم متنوعة وترويج لثقافة إيديولوجية معينة.

المفاهيم المفتاحية للمقال: الجامعة، التنشئة الاجتماعية، التعليم والتنشئة الاجتماعية، سوسيولوجية الجامعة.

Résumé:

L'université dans son message original est un projet de connaissance et d'expertise. Il produit, transmet et diffuse son contenu, il procure des avantages aux personnes. L'université est un espace fournissant et diffusant des connaissances, elle forme des modèles cohérents et intégrés avec la société extérieure et la société en général. L'autorité universitaire exerce un contrôle en imposant un modèle particulier pour mettre en œuvre l'idéologie de l'autorité par le biais de modèles et de valeurs culturelles. Le rôle de l'université n'est pas de faire des diplômés, mais de représenter une société développée.

L'université est le fondement de la socialisation et ce n'est qu'un petit modèle pour la société qui l'a fondée. Il représente également une organisation officielle qui contribue efficacement au processus de socialisation et au perfectionnement de la connaissance des générations et à l'introduction de la culture de la société en fonction des tendances et des valeurs.

- . **Concepts clés de l'article:** université, socialisation, éducation et socialisation , sociologie de l'université

مقدمة:

إن الوظيفة الأساسية والأكثر خطورة والتي تقوم بها الجامعة هي التنشئة الاجتماعية وتطبيع أفراد المجتمع بقيم وثقافة هذا الأخير، حتى يصبحوا أفراداً صالحين ومساهمين في الحفاظ على قيمه وضمأن سيرورته وجودته.

فعملية التنشئة الاجتماعية تصنع الشخصية كما أنها في نفس الوقت تحدد ضعفها وقوتها، وهذا يعود بالطبع إلى السلوك المتبع من طرف أفراد المجتمع، فالتنشئة الاجتماعية عموماً تعتبر العملية التي يتحول عن طريقها الفرد من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي، ويصبح عضواً نافعا في المجتمع يؤدي الدور الذي يطلب منه، ومن ذلك فإن عملية التنشئة الاجتماعية هي من أهم العمليات شأناً في حياة الطلاب لأنها تلعب دوراً أساسياً في تكوين شخصيته، والتي إن صلحت هذه الشخصية ساهمت بدورها في تطور المجتمع وتقدمه.

فالجامعة هي مؤسسة اجتماعية وهي مصدر لثقافة جديدة وقيم وأفكار نابعة منها، تسعى إلى تلقين وتطبيع أفراد المجتمع قيمها وثقافتها حتى يصبحوا أفراداً صالحين ومساهمين في الحفاظ على المجتمع والعمل على تطويره المستمر قصد ضمان جودته وصيرورته.

كل هذا يدفعنا في بحثنا الحالي يدفعنا للتساؤل عن مدى فعالية المؤسسة الجامعية في القيام بعملية التنشئة الاجتماعية،

- ماهي خصائصها وأهدافها؟
- ما هو دور التعليم الجامعي في عملية إدماج الفاعلين داخل المؤسسة الجامعية في المجتمع الأكبر؟
- ما هو دور الجامعة في ديمقراطية المجتمع وفي التنشئة الاجتماعية؟

أولاً - المفاهيم المفتاحية للمقالة:

1- تعريف التنشئة الاجتماعية:

إن التنشئة الاجتماعية مفهوم ومصطلح أشارت إليه الكثير من التخصصات والدوائر العلمية وحاولت دراسته، لذلك تختلف تعريفاته وتباين بين الكثير من المنظرين في هذا المجال.

فالتنشئة الاجتماعية هي " عملية التفاعل التي من خلالها يتكيف الفرد مع بيئته الاجتماعية وتشكيله ليتمثل معايير مجتمعه، وهذه العملية تقوم أساساً على نقل التراث الثقافي والاجتماعي".¹

كما يعرف أحد الفنين التنشئة الاجتماعية بأنها " العملية التي يتم بها إدماج الطفل في الإطار الثقافي للمجتمع عن طريق توريثه أساليب التفكير والمعتقدات والعادات والتقاليد السائدة في المجتمع وما يرتبط بها من أنماط سلوكية، حتى يصير من مكونات شخصيته".²

كما تعرف على أنها " العملية التي يتعلم بها الفرد خلال علاقاته بالآخرين وتفاعله معهم كيفية السلوك المقبول من جماعته، والابتعاد عن السلوك غير المقبول ونتيجة لهذا التفاعل الاجتماعي ينمو الفرد ويصبح عضواً فعالاً في المجتمع".³

وعليه فالتنشئة الاجتماعية بوجه عام في المؤسسة الجامعية يمكن وصفها بالعملية التي يكتسب الأفراد بواسطتها المعرفة والمهارات والإمكانات التي تجعلهم بصورة عامة قادرين في مجتمعهم، خاصة التنشئة الاجتماعية السياسية التي فيها يجري شحن وعي الفرد بما تحتاجه من مدركات سياسية إزاء النظام السياسي وبما يعنيه في اتخاذ دور فعال إزاء الظاهرة السياسية، وهذا يتطلب تدريب الفرد على إدراك ما يحيط به في الوسط الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، وتأثير ذلك على مواقفه وقيمه السياسية.

¹ - السيد عبد القادر الشريف : التنشئة الاجتماعية للطفل العربي في عصر العولمة، دار الفكر العربي، القاهرة، 2005، ص 8.

² - شابي محمد: دور التعليم الجامعي في تشكيل تطلعات الطلبة للمرأة العاملة، رسالة ماجستير في علم الاجتماع التربوية غير منشورة، جامعة جيجل، 2009، ص 51.

³ - أبو رزق حليلة علي: المدخل إلى التربية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ط2، 2004، ص 43.

2- مفهوم الجامعة:

ارتبط مفهوم الجامعة في كثير من الأحيان بالمعرفة، فهي تعرف بأنها مجتمع العلماء، وهي تمثل المخزون المعرفي للمجتمع، فبقدر ما يحتاج المجتمع لموارد طبيعية لبناء بنيته التحتية الاقتصادية، فهو في أمس الحاجة لبناء كيانه المعرفي والقيمي وذلك وما يتجلى في وظيفة الجامعة، ويعبر المفكر الألماني كارل جاسبرز عن ماهية الجامعة بقوله " أن الجامعة تعني في حقيقة الأمر الوجود الفكري للمجتمع." ¹

والجامعة هي ذلك الإطار الذي يسعى لتنظيم عملية نقل المعرفة من جيل لآخر، كما "أنها المؤسسة الوحيدة التي يمكن أن تهيمن وتقود عملية تنمية رأس المال المعرفي للبشر" ²، والجامعة هي الوسيط لنقل هذه المعرفة عبر الأجيال، فقد تحددت وظائفها في مجالات أساسية هي التعليم، والبحث والإعداد لتأهيل المواطن والفرد لكي يكون ذا نفع بالنسبة للمجتمع، على أن الوظيفة الأسمى والجوهرية للجامعة تتمثل في تأسيس حركة نقدية من أجل التغيير.

والمتبع لتطور مفهوم الجامعة عبر الحقب التاريخية الماضية، أو لما كتب المختصون التربويون والأكاديميون يدرك دور ومهام الجامعة التي تتمثل في مجمل العمليات والأنشطة التي تتضمن توليد المعلومات واستخلاص المعارف واستخدامها ونقلها، وكذلك تنمية القدرات والمهارات بما في ذلك تلك التي تكون الشخصية السوية أي بناء الشخصية التي تتفاعل مع المحيط الذي نعيش فيه.

وعليه يمكن القول أن الدور الذي تلعبه الجامعة من نقل للمعرفة للأجيال هو الذي يسمح لهم بالتعاطي مع التحديات العصرية، والحضارية، والفكرية، والثقافية بوعي وعقلية متفتحة.

ثانيا: خصائص التنشئة الاجتماعية التي تقوم بها الجامعة:

تتميز التنشئة الاجتماعية بمجموعة من الخصائص من أهمها أنها عملية لتشكيل السلوك الاجتماعي للفرد، وهي عملية اجتماعية تستهدف استدخال ثقافة المجتمع في بناء الشخصية، كما أنها عملية اجتماعية قائمة على التفاعل المتبادل بينها وبين مكونات البناء الاجتماعي و نسبته تختلف من حيث الدرجة والنوعية باختلاف الزمان والمكان، وكذلك باختلاف الطبقات الاجتماعية داخل المجتمع الواحد وما تعكس كل طبقة من ثقافة فرعية، وهي عملية مستمرة، حيث أن المشاركة المستمرة في مواقف جديدة تتطلب تنشئة مستمرة يقوم بها الطالب بنفسه ولنفسه حتى يتمكن من مقابلة المتطلبات الجديدة للتفاعل وعملياته التي لا نهاية لها.

كما أنها عملية إنسانية واجتماعية حيث يكتسب الفرد من خلالها طبيعته الإنسانية غير الفطرية والتي تنمو من خلال المواقف، عندما يشارك الآخرين تجارب الحياة، فهي تهدف إلى تحويل الفرد إلى عضو فعال قادر على القيام بأدواره الاجتماعية متمثلا للمعايير والقيم والتوجهات.³

¹ - شابي محمد: مرجع سبق ذكره، ص 43.

² - ثريا عبد الجواد: الأوضاع الراهنة للتعليم الجامعي، الإعداد الأكاديمي، علم الاجتماع نموذجاً، المؤتمر العربي الثاني " تقويم الأداء الجامعي وتحسين الجودة "، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، القاهرة، مصر، 2007، ص 15.

³ - أبو جلالة صبحي العبادي، محمد حميدان: أصول التربية بين الأصالة والمعاصرة، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، 2005، ص 49.

إضافة إلى أن أهم خصائص التنشئة الاجتماعية أنها عملية تعليم وتعلم وتربية، تقوم على التفاعل الاجتماعي وتهدف إلى اكتساب الفرد؛ طفلاً فراشداً فشيخاً سلوكاً ومعايير واتجاهات مناسبة لأدوار اجتماعية معينة تمكنه من مسايرة جماعته والتوافق معها وتكسب الطابع الاجتماعي وتيسر له الاندماج في الحياة الاجتماعية، إذ أنها عملية تشكيل السلوك الاجتماعي وهي عملية إدخال ثقافة المجتمع في بناء الشخصية. وعليه فالمؤسسات الاجتماعية عموماً والمؤسسة الجامعية خصوصاً تلعب دوراً رئيسياً في عملية التنشئة الاجتماعية، حيث وتتدخل لتؤطر الفرد وتوجه حياته وتشكلها في مراحلها المبكرة، ولكنها تستمر في ممارسة تدخلها فترة طويلة من الزمن كون التربية عموماً والتنشئة خصوصاً تكون طول مدة حياة الفرد.

ثالثاً: أهداف عملية التنشئة الاجتماعية:

يمكن إنجاز أهداف عملية التنشئة الاجتماعية فيما يلي:

- (1) تكوين جماعات ذات أهداف واضحة وتؤمن بقيم معينة.
- (2) إكساب الفرد مبادئ واتجاهات وقيم المجتمع الذي يعيش فيه ليتمكن من الاندماج مع أفراد هذا المجتمع، ويؤدي واجباته دون معوقات.
- (3) تهذيب الغرائز الطبيعية عند الفرد وتحويله على العادات الصالحة في الملبس، والمأكل، وطرق المعاملة، وإكساب معلومات إضافية عن الحياة وعن مجتمعه.
- (4) تعديل وصقل ذكاء الأفراد عن طريق إتباع الأسلوب العلمي في معاملته وتفاعله.
- (5) غرس القيم الاجتماعية الإيجابية في مخيلة الفرد مثل التعاون، والحرية، والاستقلال، والحب واحترام الآخرين، والصدق... الخ.
- (6) الإعداد العلمي للفرد لكي يكون مرتفع الكفاءة العلمية والعملية.¹
- (7) تحقيق عملية الضبط الاجتماعي بالنسبة للمجتمع بشكل عام، والامتثال لقواعده وقيمه ومثله.
- (8) تهدف إلى تغيير الحاجات الفطرية للفرد إلى حاجات اجتماعية ليصبح هذا الفرد إنساناً اجتماعياً يتعلم أخلاقيات المجتمع الذي يعيش فيه.

إذن فعملية التنشئة الاجتماعية تلتقي عند غاية الارتقاء على ثقافة المجتمع وتراثه الاجتماعي، وتكوين الفرد الصالح المتفاعل مع الجماعة، والمتحكم في سلوكياته وتصرفاته.

رابعاً: دور التعليم في التنشئة الاجتماعية:

يأتي الطفل إلى المدرسة بشخصية تشكلت في الأسرة الصغيرة وفق قيم معينة وسلوكيات خاصة، فيصبح في وضع جديد عليه، يستوجب التعرف على شخصيات متعددة فيكون تفاعل المدرسة قائم على التبادل الوجداني والقيمي، مما يزيد من خبرات الطالب ويثمن تجاربه الاجتماعية بتنوع واتساع دائرة اتصالاته.²

¹ - السيد عبد القادر الشريف : مرجع سبق ذكره، ص 12.

² - شاي محمد: مرجع سبق ذكره، ص 53.

فالمدرسة تمارس سلطتها وفق أطر منظمة ومحددة، وهي المؤسسة الاجتماعية الثانية بعد الأسرة، التي أنشأها المجتمع لتربية أفراده وتعليمهم، وهي مجتمع مصغر يشبه المجتمع الكبير لأنها تضم داخلها مجموعة من الأنشطة والعلاقات الاجتماعية المتعددة، وعلاقتها بالمجتمع علاقة متبادلة، كما تعتبر وسطا تربويا يدخل الفرد منه إلى حياته المجتمعية.

وعليه أصبح دور المؤسسة في التنشئة الاجتماعية يفوق دور الأسرة في بعض الأحيان أو حتى دور بعض المؤسسات الأخرى، فالمدرسة صارت تكمل الأسرة لما لها من مقومات تجعلها تؤدي وظائفها على أكمل وجه، والذي تعجز عنه مؤسسات التنشئة الاجتماعية الأخرى. كما أن مهمة المدرسة تتمثل في تحقيق الانجذاب نحو ما يقدم من مادة ومعرفة إضافة إلى جعل الدارس واعيا تماما بطبيعة الأشياء والحياة الداخلية في الواقع الاجتماعي.

ومنه يمكن اختصار دور المدرسة باعتبارها المؤسسة المسؤولة عن التعليم في التنشئة الاجتماعية فيما يلي:

- 1) نقل الثقافة والقيم والمعايير عن طريق التعليم المباشر.¹
 - 2) تكوين جماعات اجتماعية يجد فيها الدارسون فرصة للحصول على مهارات وخبرات اجتماعية مختلفة.
 - 3) تقديم الرعاية النفسية والاجتماعية إلى كل طفل ومساعدته على حل مشكلاته.
 - 4) إكساب الأطفال السلوكيات الاجتماعية المقبولة، والإيجابية، والعادات الصحية السليمة.
 - 5) إكساب التلاميذ أساليب التفكير العلمي وتحفيزهم على الأداء والإنجاز.
 - 6) مراعاة قدرات الأطفال وتفهمها، وصقل مهاراتهم وإتاحة فرص نمو شخصياتهم في إطارها الاجتماعي.
- وخلاصة القول؛ فإن المؤسسة كمؤسسة اجتماعية أصبحت تلعب الدور البارز في العملية التعليمية والتربوية، بإتباع أساليب مساعِدة على تهيئة أعضاء جدد في المجتمع.

خامسا: وظائف الجامعة والعملية التنشئية:

إن الاستثمار في الرأسمال البشري في النشاط التعليم الجامعي لقي اهتماما كبيرا في العقود الأخيرة من قبل المهتمين بقضايا التنمية البشرية والمشرفين على سياسات التعليم الجامعي.

فالجامعة بكلياتها ومعاهدها ومراكز البحوث التابعة لها، إسهام كبير في كل ما من شأنه تطوير التربية والتعليم الجامعي، والبحث العلمي والتنمية الشاملة، وتسعى الجامعة لذلك من خلال الأصالة وبرامجها والتجديد في منهاجها والحدثة في أساليبها.

ولقد لقي التعليم الجامعي القسط الكبير من الميزات وبالخصوص لدى الدول المتقدمة، وقد حذت حذوها الدول النامية، فأصبحت تنفق على الجامعات والتعليم العالي حتى تلي حاجيات المجتمع المتعددة، من خلال تكوين الكوادر والكفاءات البشرية المؤهلة تأهيلا معرفيا ومهنيا في تخصصات مختلفة تساهم بشكل كبير في التنمية الشاملة للمجتمعات سواءً في المجالات الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو السياسية أو الثقافية.

وعلى ضوء كل هذا يمكن إبراز دور الجامعة في ثلاث مهام رئيسية هي:

1. التعليم العالي:

¹ - بوعنقة علي: المدخل لعلم الاجتماع التربوية، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، ص126.

لا يختلف اثنان على أن نشأة الجامعة كانت من أجل ممارسة الفعل التربوي والبيداغوجي المتمثل في التعليم العالي من خلال التدريس المباشر وتلقين المعارف ومختلف العلوم، حيث تسعى إلى تكوين وإعداد الجامعيين المتخصصين في فروع المعرفة العلمية والمهنية التي تحتاج إليها الدول، إضافة إلى تعويدهم الاعتماد على النفس والاستعداد المستمر لخدمة الوطن.

وعليه فإن محور العملية التدريسية في الجامعة هو الأستاذ الجامعي والذي يتطلب منه القيام بمجموعة من المهام:

- رعاية الطلبة فكريا وتربويا بما يضمن تنشئة جيل مؤمن بالمبادئ الإسلامية وأهداف الأمة العربية.
- الإشراف على البحوث والرسائل الجامعية.
- القيام بتدريبات نظرية، وعملية، وتطبيقية، وميدانية خاصة بالطلبة.
- المشاركة في تطوير الأقسام العلمية فكريا، وتربويا، وعلميا وذلك بتقويم الدراسات والبحوث والتقارير والخطط والمناهج الدراسية وغيرها.
- المشاركة في الندوات والمؤتمرات والحلقات الدراسية داخل وخارج الجامعة.¹

ولذلك يرى عالم الرياضيات والفيلسوف البريطاني (وايتهد witehead) بأن الجامعة مكان لتدريس الطلاب وتنمية قدراتهم العقلية والفكرية، إذ ينظر للعقل على أنه أداة للتفكير المبدع وليس مكان لتخزين المعلومات، حيث عبر عن ذلك بالعلاقة المشهورة "إن المجتمع الذي لا يُقدّر العقول المثقفة النيرة، مجتمع محكوم عليه بالإخفاق"²، ولذلك نجد (وايتد) يحتج بشدة على تدريس طلاب الجامعة ما أسماه بالأفكار الميتة أو الأفكار الغير قابلة للتطبيق.

2. البحث العلمي:

بعد بدأ الجامعة بمهامها بوظيفة التدريس، انتقلت إلى الوظيفة الثانية وهي وظيفة البحث العلمي، هذا الأخير اعتمدته الجامعة كمهمة أساسية لتطوير وتجديد الجامعة، وأصبح البحث العلمي يشغل قدرا كبيرا من وقت وفكر أساتذة الجامعات ومسؤوليها لأن مكانة الجامعة أصبحت مرتبطة ارتباطا وثيقا بما تنتجه من بحوث وما تنشره من أعمال.

وعليه اعتمدت الجامعة على البحث العلمي كأداة فعالة للكشف عن الحقائق العلمية وحل المشكلات والتنبؤ بالظواهر الاجتماعية، وإجراء البحوث المتصلة بالبيئة المجتمعية وبغيرها من البيئات في مجالات التكنولوجيا والاقتصاد والعلوم والآداب، وذلك بغية الارتقاء بالمستوى الثقافي والمعيشي للمجتمع، إضافة إلى المساهمة الكبيرة التي يقدمها البحث العلمي لتقدم وتطور المعرفة الإنسانية عن طريق إعداد الباحثين والمفكرين والعلماء، وإجراء البحوث العلمية الأساسية في جميع المجالات التنموية، واقتراح الحلول العلمية والعملية المناسبة وبكل الوسائل الأخرى التي تراها الجامعة ملائمة لتحقيق هذا الهدف.

كما يسعى البحث العلمي إلى القيام بدور مباشر وفعال في خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع، وذلك بالمساهمة في تطوير الإنتاج وتحقيق استخدام أمثل للموارد والطاقات المتاحة.

3. تثقيف وتنشئة أفراد المجتمع:

¹ - السيد سلامة الخميس: المعلم العربي: بعض قضايا التكوين ومشكلات الممارسة المهنية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط 1، 2003، ص 357.

² - مليحان معيض الثبيتي: المجلة التربوية، العدد 54، 2000، ص 229.

إن ممارسة الفعل الثقافي يتجلى من خلال ثلاث عناصر أساسية هي " أنماط الإنتاج الفكري باعتبارها المواد الخام، والبناء الاجتماعي الذي يمثل الإطار الذي تصدر عنه هذه المواد، ثم الحاملون لهذه المواد باعتبارهم صاهرين ومحولين لها في أشكال متجاذبة أو متنافرة حسب علاقتهم بالبناء الاجتماعي، فتوصل إلى تمييز أنواع عدة من هذه الأشكال، لا كأشكال مجردة أو ميتة، بل كأشكال لها علاقة بالتربة التي أفرزتها." ¹

فالجامعة على المستوى الثقافي لا بد أن تتبع سياسة ثقافية واعية ومتفهمة لموم الطلبة والشباب الجامعي، وأزماتهم القيمية والفكرية والإيديولوجية والحضارية، وتقليص التمايز والتناقض الذي يعيشه الشباب الجامعي بين الثقافة التي تروجها المؤسسات التعليمية عبر المقررات الدراسية وأشكال النماذج القيمية والسلوكية، وبين ما تروجه مختلف مؤسسات ومجالات العولمة من قيم مغايرة، فهناك من جهة أولى ميل البعض منهم إلى تجاوز الماضي وتخطي واقعه المأزوم عن طريق الاشتراك مع الآخر (الأجنبي) في حضارته وثقافته ولغته ونمط عيشه، وهناك من جهة أخرى رغبة لهؤلاء الشباب التثبث بالماضي وأصالته والدفاع عن هويته الثقافية عن طريق التمايز والاختلاف عن الآخر وعن مقوماته الحضارية والاجتماعية والثقافية مع المتغيرات التي يطرحها المجتمع الحديث.

وعليه يظهر دور الجامعة في الحفاظ على القيم الثقافية المحلية في مقابل القيم والثقافة العالمية، إضافة إلى تلقين ثقافة الأجيال ثقافة المجتمع وتعديل تصوراتهم حتى يتسنى لهم فهم وتغيير الواقع الاجتماعي برؤية أكثر وضوحاً تخدم أهداف المجتمع.

سادساً: سوسيولوجيا الطالب الجامعي:

أصبح الطالب الجامعي محورا للاهتمام على المستوى الوطني وتعالى جميع الميادين، والطالب الجامعي من وجهة النظر العملية يمثل جماعة أو شريحة من المثقفين والنخبة في المجتمع بصفة عامة، إذ يتركز مئات الألوف من الشباب في نطاق المؤسسات الجامعية، مما يعطي لهذه المؤسسات التعليمية أهمية كبيرة في المجتمع.

فالطالب الجامعي هو المحرك الأساسي في عملية التغيير الاجتماعي، وهو العنصر الأساسي في دفع عجلة التنمية، إذ يعتبر المجتمع المصدر الذي يستلهم منه الطالب الشاب اتجاهاته ومواقفه وتمثلاته لواقعه ومحيطه وبيئته.

وعن طريق " الفعل التربوي تتم عملية التنشئة الاجتماعية، ويعد الإنسان للحياة، لا لأن يتكيف معها فقط، بكل تياراتها ومشكلاتها وتحدياتها، ولكن أيضا إعداده ليكون قادرا على إحداث التغيير والتطوير وما بما فيه صالح الفرد والمجتمع معا." ²

إذن الطالب الجامعي وهو يقتحم الفضاء الجامعي المتميز بالاستقطاب الإيديولوجي يمر وفق حتميات يفرضها عليه المجتمع، فهذه العملية تتطافر على إحداثها محددات وحتميات من مستويات مختلفة بدءا بالحتميات الاجتماعية، والنفسية، والثقافية وانتهاءً بحتمية آليات الاستقطاب في كل مجتمع معاصر، ولعل الباحث في علاقة الشباب بالإيديولوجيا ليسن بحثا في الاختيارات الحرة والإدارية، بل إن هذا البحث يصبح علميا ومطابقا للواقع كلما توخي الكشف عن هذه الحتميات والآليات من مختلف المستويات والتي تجعل الشباب يسقط هذه الإيديولوجيا أو تلك. ³

¹ - محمد علي عيسى: الثقافة بين إشكالية التجانس والتمايز، دراسات عربية، العدد 4، 1989، ص 39.

² - دونا أتشايدا وآخرون: إعداد الطلاب للقرن الحادي والعشرين، ترجمة السيد محمود عدور، إبراهيم رزق وحش، القاهرة، علم الكتب، ط 1، 1999، ص 7.

³ - شاي محمد: مرجع سبق ذكره، ص 7.

وعليه فالطالب الجامعي يحدد علاقته بالفعل التربوي وفق وظائف أساسية للنسق الجامعي وهي "وظيفة التأقلم مع سوق الكفاءات (المشروع المهني) و وظيفة التنشئة الاجتماعية (الاندماج في الوسط الجامعي الطلابي) وأخير وظيفة الإبداع الفكري (الأهلية الثقافية)".¹

فالجامعة بوصفها جماعة لها خصوصياتها مسؤولة عن تعليم الشباب الجامعي أنماطا سلوكية جديدة تختلف في أغلب الأحيان عن تلك التي يتمثلها في محيط أسرته، إضافة إلى تكيفه مع الأدوار المهنية والاجتماعية التي يفرضها التغيير الاجتماعي الواسع، ودمج النظام الاجتماعي الجديد بغية تحقيق تضامنه معه من خلال الارتباط به عقليا وعاطفيا.

وعليه يمكن القول أن الفضاء الجامعي هو المتلقي الأساسي بمختلف الأجيال، يلتقون فيه من أجل عشق المعرفة والبحث والاحترام للرأي المخالف وفي محيط يتميز المساواة والتقدير المتبادل، والطلبة يعملون داخله من أجل اكتساب ثقافة فرعية تتجلى من خلال تماثلهم وسلوكاتهم، وكذا ممارساتهم التي تماشى مع المحيط الجامعي الذي ينتمون إليه، فالطالب من خلال الجامعة يؤثر ويتأثر، يفيد ويستفيد، خاصة أن هذه المؤسسات تعتبر بيئة اجتماعية يعيش فيها الفرد وسط مجموعة من التجارب والخبرات.

سابعا : الجامعة و ديمقراطية المجتمع:

الجامعة الحديثة مؤسسة ديمقراطية بمختلف فعاليتها وأنشطتها واتجاهاتها، ومن هذا المنطلق يمكن الجزم بأن الجامعة في المجتمعات التقليدية المحافظة تطرح إشكالية اجتماعية متعددة المستويات، أحد أهم هذه المستويات هو كيف يمكن لهذه المؤسسة أن تؤدي رسالتها الديمقراطية والمدنية في مجتمع تركز فيه قيم ومفاهيم تتعارض مع معطيات الرسالة الديمقراطية للجامعة، فقيم المجتمع المدني ومجموعة الحقوق والواجبات التي تدعو إليها الجامعة وتمارسها تتعارض إلى حد كبير مع قيم الانتماءات التقليدية والمحلية الضيقة التي تتميز بها مجتمعات كثيرة.

والسؤال الذي يطرح نفسه اليوم هو؛ هل تمارس الجامعة فعليا دورها في غرس الديمقراطية والمدنية، وتعمل على تعزيزها في نفوس الأجيال المتلاحقة من الطلاب؟ أم أنها ما زالت تواجه كوابح اجتماعية تمنعها من ممارسة هذا الدور وتدفعها نحو الاستمرار في تعزيز الممارسة والقيم التقليدية السائدة في المجتمع؟ وفق منطق الشعار القائل " كما يكون المجتمع تكون المؤسسة التعليمية".

و مما لا شك فيه أن منظومة القيم الجامعية تتفاعل مع قيم المنظومة الاجتماعية السائدة، وهذا يعني وجود حالة من التفاعل الديناميكي بين المنظومة الاجتماعية ومنظومة الحياة الجامعية التي تنطوي على قيم ومعايير وأنماط سلوكية ومظاهر حياتية تنحدر في إطار الحياة الاجتماعية، فالطلاب الملتحقون بالجامعة يكونون محملين في قعر تكوينهم السوسولوجي بمنظومة القيم الاجتماعية، ويمارسون أنماطا من السلوك مرتكزة إلى حد كبير على تكوينهم وتنشئتهم المشبعة بتلك القيم التي تتضارب ويتعارض الكثير منها مع القيم الجامعية المفترضة المبنية على أسس علمية، تتجه إلى تعزيز الوعي والقيم والتي تختلف في كثير من جوانبها وممارساتها عن تلك التي تسود في إطار الحياة الاجتماعية التقليدية.

ولعل طبيعة اللحظة التاريخية التي نعيشها اليوم تفرض ضرورة أن يكون للجامعة دور وأهداف مغايرة لتلك التي كانت في المرحلة السابقة والمقصود بذلك أن تصبح العملية التعليمية وسيلة لتكوين العقلية الناقدة الحرة القادرة على ممارسة حقوقها والتتمتلك الثقة بالذات، والقادرة على التفاعل مع الآخر بعقلية منفتحة وبسماحه.

¹ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

إن الاهتمام والتركيز على مجموعة الحقوق والواجبات في إطار الحرم الجامعي يمكن أن تكون وسيلة لتحرير عقل الطالب من السيطرة والقهر، و وسيلة لتعميق مفاهيم التسامح الفكري والعقائدي واحترام الآخر، و وسيلة لتنمية طاقاته وتخليص عقله من الأوهام وشحذ تفكيره نحو المشاكل المحيطة به، ومن ثم تنمية وعيه بحقوق شعبه وبدوره في المشاركة وتحمل المسؤولية.

ولكي يتحقق و لو جزء مما تم ذكره، ينبغي لهذا الأمر ألا يبقى محصورا في إطار الأمنيات المعبر عنها بكلمات لا تجد صداها عند أصحاب القرار، بل لابد من القائمين على المؤسسات الجامعية من إداريين وأساتذة أن يكونوا على درجة عالية من الكفاءة تمكنهم من إحداث التغيير المنشود.

ثامنا: المؤسسة الجامعية والتنشئة الاجتماعية:

إن الجامعة هي مؤسسة اجتماعية تربوية، وهي صورة الحياة الاجتماعية التي تتركز فيها جميع تلك الوسائط التي تهيئ الطالب للمشاركة في ميراث الجنس، وإلى استخدام قواه الخاصة لتحقيق الغايات الاجتماعية، فالجامعة هي " زمن العقل الذي استبدله التطور الثقافي الاجتماعي بالنقل، بساحة السؤال الذي أملاه تقدم العلم محل التسليم، الشك الذي أنزلته معرفة العصر المتصاعدة منزلة التصديق، العلم الذي نجح في إزالة الخرافة، حق الاختلاف الذي أبطل معنى الإجماع، روح المبادرة الفردية التي قضت على ضرورة لزوم الجماعة وعدم الخروج عليها"¹

وكما يقول عالم الاجتماع الأمريكي (بارسونز)، فالجامعة خصوصا هي جزء حاسم بشكل خاص من بنية المجتمعات الحديثة، وهي على مستوى النظام الاجتماعي ذات وظائف هامة جدا، ومن أهمها وظيفة التنشئة الاجتماعية، وتوزيع الأشخاص في النظام التعليمي المهني وتقديم المعرفة وتعميم العوامل التي تقوم عليها المشاركة الوجدانية في البنى الاجتماعية الحديثة.

ويؤكد بارسونز أن الجامعة تقوم بدور أساسي في التنشئة الاجتماعية، لا يتجاوز دور كل من الأسرة والمدرسة فحسب بل يكمله، ويتضح هذا الدور في تنمية السلوك الاستقلالي عند الشباب الجامعي إلى أبعد مما يفعله المنزل والمدرسة خاصة في المجالين الثقافي والسياسي، فهذه المؤسسات التعليمية عموما تعتبر كأحد أدوات التنشئة الاجتماعية مسؤولة عن تعليم الطلاب والشباب الجامعي، وتنمية وعيهم السياسي وتعريفهم بحقوقهم و واجباتهم السياسية من خلال مقررات دراسية رسمية وأنشطة أخرى تثقيفية لا صفية تلعب دورا كبيرا ومؤثرا في تكريس الاتجاهات والمفاهيم والمعتقدات المتعلقة بالنظام السياسي و الاجتماعي، رغم الاختلاف في عملية التنشئة الاجتماعية من حيث بساطتها وتعقيدها من مجتمع لآخر بحسب التطور التاريخي واختلاف الثقافة السياسية السائدة، وطبيعة مشكلاتها، فتكون التنشئة الاجتماعية بسيطة في المجتمعات التقليدية، حيث تقوم على التقليد والتلقين أكثر من قيامها على التحليل والتمييز والتفكير، أما في المجتمعات الحديثة والمعقدة فالعملية تتركز على التفكير والتعبير والاختبار.

كما سبق ذكره، واضح للعيان أن الجامعة والمدرسة - كمؤسسة اجتماعية وتربوية - في العمليات التربوية والتثقيفية هام وفعال، مما جعل (أيقور موريش) يؤكد " بأن حجرة الدراسة مثل المدرسة أيضا بكل ما فيها مرآة للمجتمع بما فيه من تسلسل هرمي وبطباته ومشكلاته الشخصية، يتعلم الفرد بتوجيه وإرشاد من المعلم أو الأستاذ أو جماعات الرفاق الأكبر سنا كيف يعيش مع الآخرين، يبني خلال هذه العملية التفاعلية هويته الاجتماعية بطريقة صحية وطبيعية."² 172

¹ - جابر عصفور: معنى الجامعة، العدد 451، 1996، ص 68.

² - بوغناقة علي: مرجع سبق ذكره، ص 126.

كما أن الدور الأساسي في عملية التنشئة الاجتماعية والذي يقع على عاتق الجامعة باعتبارها المحطة العلمية الأخيرة هي غرس في نفوس الطلبة القيم الحضارية ومعاني الحقوق و الواجبات من خلال الممارسات اليومية التي تتسم بالمساواة، وإشاعة حرية الفكر والتعبير لتنهض بمستوى قدراتهم وذهنياتهم، حتى يستطيعوا استيعاب أدوارهم وممارستهم الحقيقة في الواقع الاجتماعي، وتفسيرهم لأحداثه.

خاتمة:

إن محاولتنا كشف واقع التنشئة الاجتماعية في الجامعات الجزائرية، يؤدي بنا إلى القول بأن دور الجامعة في تنشئة الشباب الجامعي ما زال أثره محدود، على اعتبار أن دورها أصبح لا يتعدى مجرد تلقين الطلبة مجموعة من المعلومات والمعارف وتقديم شيء من الرعاية النفسية والاجتماعية لهم دون مراعاة قدراتهم ومهاراتهم الشخصية، إضافة إلى عدم إتاحة فرص النمو الذاتي والشخصي. ومنه فالسبيل الوحيد لتعديل هذا الواقع هو تسليط الضوء بصورة أكبر على أهمية الدور الذي تلعبه الجامعات في التنشئة الاجتماعية، لاسيما السياسية والثقافية منها من خلال حث الأساتذة والباحثين الجامعيين باعتبارهم مصدر السلطة ومصدر المعرفة التي يجب طاعتها، والمثل الأعلى الذي ليمثل به الطلبة أن يكونوا متسلحين بالمعرفة والفضائل الأخلاقية والاجتماعية، وبإشاعة حرية الفكر والتعبير. فالوظيفة الشاقة التي تقع على عاتق الجامعة تفرض عليها خلق آفاق وفتح مجالات كانت بالأمس ممنوعة، من أجل إعداد أجيال المستقبل وحمايتها من التغيرات التي تهدد جوهر ثقافة المجتمع وهويته، وغرس القيم الحضارية، وقيم التغيير وحرية الفكر والتعبير، وفرص الإبداع والابتكار في نفوس أبنائها، لمساعدتهم على التعاطي مع التحديات العصرية والحضارية والفكرية والثقافية بوعي وعقلية منفتحة.

قائمة المراجع :

- 1 أبو جلاله صبحي العبادي، محمد حميدان: أصول التربية بين الأصالة والمعاصرة، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، 2005.
- 2 أبو رزق حليلة علي: المدخل إلى التربية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ط2، 2004.
- 3 بوعنقة علي: المدخل لعلم الاجتماع التربوية، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة.
- 4 ثريا عبد الجواد: الأوضاع الراهنة للتعليم الجامعي، الإعداد الأكاديمي، علم الاجتماع نموذجاً، المؤتمر العربي الثاني "تقويم الأداء الجامعي وتحسين الجودة"، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، القاهرة، مصر، 2007.
- 5 جابر عصفور: معنى الجامعة، العدد 451، 1996.
- 6 دوناتشيدا وآخرون: إعداد الطلاب للقرن الحادي والعشرين، ترجمة السيد محمود عدور، إبراهيم رزق وحش، القاهرة، علم الكتب، ط1، 1999.
- 7 السيد سلامة الخميس: المعلم العربي: بعض قضايا التكوين ومشكلات الممارسة المهنية، دار الوفاء لدينا للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2003.
- 8 السيد عبد القادر الشريف: التنشئة الاجتماعية للطفل العربي في عصر العولمة، دار الفكر العربي، القاهرة، 2005.
- 9 شابي محمد: دور التعليم الجامعي في تشكيل تمثيلات الطلبة للمرأة العاملة، رسالة ماجستير في علم الاجتماع التربوية غير منشورة، جامعة جيجل، 2009.
- 10 محمد علي عيسى: الثقافة بين إشكالية التجانس والتمايز، دراسات عربية، العدد 4، 1989.
- 11 مليحان معيض الثبتي: المجلة التربوية، العدد 54، 2000.